هدايا وصورة

كانت فريدة تدخل نورا وجهاد الى الحمام على التـوالي، وتـساعهما فـي فـرك ظهريهماوتجفيف شعرهما وإعطائهما الثياب الصوفية الجديدة التي أحضرتها لهما لهذه المناسبة.

دخلت غرفة الطعام، وأنا أحمل هداياي للصغيرين، وجاءت جهينة بهديتها لجهـاد، وكانت كاميرا صغيرة جيدة النوع ولنورا باربي عروس بالثوب الأبيض. أما أنا فكنـت أحضرت ليجو لجاد يركب كسفينةكبيرة ، وهارمونيكا لنوراووضعت في الأسفل الطـرد الذي جاءنا من عبد الرحمن. قلت لجهينة:

-حتى الآن أعالج في ذهني الطريقة التي أحدثه فيها عن أمه دون أن أجرح فـؤاده الصغير.. هذا الطرد أرسله عبد الرحمن إليه، وفيه كتاب على غلافه صورة ثريا ويضم أشعارها. لعله لا يدري أننا نخفي عنه خبر وفاتها..سيطرح علي الكثير مـن الأسـئلة، كعادته، ولا أستطيع لها جوابا.. هل أعزيه بما عزت الإنسانية نفسها به وأقول له بأنهـا صعدت الى السماء، أم أقول له أنها خالدة في قلوبنا وقلوب أناس يقرأون أشـعارها ولا يعرفونها.. سألني اليوم عن الروح فمهدت الطريق لأقول له بأن الأرواح تتواصل، وانه ليس هناك من حاجز بين الأرض والسماء، ولكنني عرفت أنه خبر معنى الموت ، وسار في جنازة أبي رفيق له استشهد في معركة قرب سيدا، والناس يحملونه على محفة وهـو مغطى بعلم فلسطين، ويوارونه في الفجوة التي نثل منها التراب لدفنـه، والأهـل حولـه يبكون.

دخل جهاد ونورا الغرفة نضرين عطرين بعد الحمام، ووقف جهاد قـرب المائـدة دهشا لما حوته من أصنا الطعام. ونادى نوراالتي كانت تريد أن تعرف ما حوتـه علـب الهدايا فأقول له "ليس الآن ..لنسمع الموسيقى ونمرح وبعد الإحتفال نفتح علب الهدايا.."

كان أكثر ما أفرح جهاد قالب الجاتو الملبس بالشوكولا وعليه اسم جهـاد ووسـيم باللون الأبيض، وفي جانبه وردتان من السكر الوردي وإكليل مـن الكريمـا البيـضاء تطوقهما.

-هيك كانت ماما تعمل في عيد ميلادنا .. بس بلا ورد ولا إكليل..

أشعلت الشموع وقلت:

-ربما في هذه اللحظة يحتفل وسيم ووالدك بعيد ميلادكما، ويكتـب علـى الجـاتو اسميكما بالفرنسية..

-ليش تانت نبيلة بابا ووسيم في فرنسا وأنا هون؟

-الله حماك هون ووالدك ذهب مع وسيم ليعالجه هناك في مستشفى الأطفال، ولقـد أرسل لنا صوره على الكومبيوتر وكيف عولج وشفي، وكيف يذهب الى المدرسـة الآن وسنراها بعد أن يتم احتفالنا..

فرح جهاد بلعبة الليجو وبالكامبرا على الأخص..قالت له جهينةك

-سأعلمك التصوير بها . كل مكان تذهب إليه ويعجبك منظره ، صوره وابعث لي بالصور كي أنشرها في مجلتنا في تونس. صوّر مدرستك ورفاقك ونورا والبحر والسفن والناس على البلاج، واترك الخرائب لأنك ونورا وأبناء جيلكما، المستقبل المشرق النيـر لهذا البلد..

شغلت نورا بدميتها وبالهارمونيكا التي أخذت تعزف عليها نغم هابي برثدي.. وجاء دور الطرد الذي أرسله عبد الرحمن وأعدت إغلاقه ليفتحه جهاد.

-هذا من والدك يا جهاد ولقد أخبرني أنه أهدى مثله الى وسيم في عيد ميلاده.

فتح جهاد الطرد بانفعال وأعجبته البدلة البحرية بقميـصها المخطـط، فهـي كمـا يشتهيأن يكون يوما قبطانا في سفينة كبيرة تعبر به المحيطات الى الدنيا الواسعة.. وسمّر اذ رأى في أسفل الطرد صورة أمه على غلاف كتاب، وتحتها اسم ثريا!

-ماما! أهي ماما حقا، أو أن أحدا يشبهها؟

-انها أمك وهذا كتاب أشعارها.

قرأ جهاد الإهداء ووضع الكتاب على صدره وهـو يـشاهد صـور وسـيم فـي الكومبيوتر.. كانت مكبرة تحتل الشاشة: في سريره، وفي الكرسي المتحرك، وفي غرفة العمليات والطبيب يجري له عملية تركيب ساق اصطناعية، ثم عند باب المدرسـة وقـد ارتدى بنطالا طويلا وكنزة صوفية بقبة عالية، ثم في الصف وهو يرتدي الزي الموحـد لتلاميذ المدرسة..

كان جهاد يكاتم انفعاله وهو يشد الكتاب الى صدره، أما نورا فقد أجهشت بالبكاء.. قلت لجهاد:

-أعرفت الآن لماذا والدك ووسيم لا يستطيعان حضور عيد ميلادك؟ ولم لا نستطيع الإتصال بهما إلا عن طريق الرسائل والكومبيوتر؟ فرنسا ليست قريبة، ولا المستشفى في حي من بيروت، وبابا عليه أن يعمل هناك ويدبر أجور المستشفى..

-ليش بابا ما بياخدني هناك، أفوت المدرسة مع وسيم؟

-دخله لا يحتمل، وتكاليف العيش غالية، ولكنه سيفعل ذلك عن قريب..

-بابا يحب وسيم أكتر مني!

-الآباء يقفون قرب من يحتاج اليهم أكثر. والمثل يقول الحب للصغير حتى يكبـر، والمريض حتى يشفى، وللمسافر حتى يعود..حب والدك لوسيم هوحبه للمـريض حتـى يشفى، وحبه لك هو حبه للغائب حتى يعود، فأنتما متعادلان في حب أبيكما..

-لاأشعر بالسعادة وأنا بعيد عن أسرتي!

-أنت الأقوى ياجهاد والأكثر قدرة على احتمال صعوبات الحياة، وأنت عندي وهو مطمئن عليك، ولا يكون قلقا على مصيرك، ففي لبنان أطفال مشردون فـي الـشوارع، ضاعوا وقد فقدوا الأم والأب والإخوة، وهم يتسوّلون في الشوارع.. القدر أرحم بنا مـن غيرنا فلا نتأسّى لحالنا!

نظر جهاد الى صورة أمه، وقرأ مرة أخرى الإهداء، ثم قال بصوت كالنحيب:

-خبريني تانت نبيلة ولا تخفي عني شيئا، هل أمي في السماء؟

ووجم الجميع، وهززت رأسي، فارتمى جهاد على صدري وأخذ بالبكاء.. لمـست شعره وقلت:

-أمك لم تفارقنا، إنها تعيش بيننا، وهذه الأشعار التي تركتها لنا هدية هي خالدة في وجداننا.. ليس هناك من حاجز يا جهاد بين السماء والأرض، ولا بـين الأم وابنهـا..ان أرواحنا تتواصل بالذكريات الحلوة والموسيقى والغناء والأشعار مع الـسماء.. سـيكون ماتركته لنا ثريا هديا لنا كلنا لنسعى كما يقول والدك لبناء عالم أفضل.. انت من أسـرة يحمل أفرادها هذا الحلم الكبير كما كان جدك البعيد وجد والدك ووالدك عبدالرحمن!

* * *